۱۶۶۱۳

مجله	حضارة الاسلام
تاریخ نشر	ج ۴ - ۱۴
شماره	۴ - ۵ سال بیست و یکم
شماره مسلسل	
محل نشر	دمشق
زبان	عربی
نویسنده	الندوی
تعداد صفحات	۶۳ - ۶۷
موضوع	الحیاة الدنیا کما ینظر الیها القرآن
سرفصلها	نظرة القرآن الی الحیاة الدنیا
کیفیت	
ملاحظات	

الحياة الدنيا كما ينظر اليها القرآن

للأستاذ السيد أبي الحسن الحسني الندوي

نظرة القرآن الى الحياة الدنيا :

هنا نقف وقفة قصيرة ، ونتساءل : ما هي نظرة القرآن الى الحياة الدنيا ؟ ويحسن بنا ان نستعرض القرآن في هذا الموضوع ، ونستوحيه ، فقد اضطربت عقول المسلمين ونظراتهم ، واقوال الباحثين واتجاهاتهم في هذه الحياة ، وقيمتها ومنزلتها .

ان القرآن يقرر — بكل وضوح وقوة وصراحة — قصر هذه الحياة الدنيا وتفاهتها ، وتضاؤلها في جنب الآخرة ، فيقول مثلا : « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل(١) » .

ويقول : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون »(٢) ويقول : « اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور »(٣) .

ويقرر كذلك في وضوح وقوة انها قنطرة الى الآخرة وفرصة للعمل . فيقول : « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا »(٤) ، ويقول : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا وهو العزيز الغفور »(٥) .

٢١/٥-٤

(١) سورة البراءة ٣٨ .
(٢) سورة العنكبوت ٦٤ .
(٣) سورة الحديد ٢٠ .
(٤) سورة الكهف ٧ .
(٥) سورة الملك ٢ .
(٦) سورة الانعام ٣٢ .

ويقرر ان الآخرة هي خير وأبقى ، فيقول : « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون افلا تعقلون » (٦) ويقول : « وما اوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى افلا تعقلون»(٧)

اذن هو يذم ويشنع على من يؤثر الدنيا ـ هذه الفانية العارضة السقيمة الناقصة على الآخرة ـ الباقية الخالدة الواسعة ، الصافية من الاكدار ، الخالية من الاخطار فيقول : « ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمانوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » (٨) ويقول : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » (٩) ويقول :«وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد » (١٠) ويقول « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (١١) ويقول « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى »(١٢) ويقول : « ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » (١٣) ويقول : « فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى » (١٤)

ويمدح من يجمع بين الدنيا والآخرة مع ايثار جانب الآخرة على جانب الدنيا ، ومعرفة قيمتها وفضلها ، والحرص عليها ، فيقول « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وماله في الآخرة من خلاق » ، ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » (١٥) .

(٧) سورة القصص ٦٠ .
(٨) سورة يونس ٧،٨ .
(٩) سورة هود ١٥،١٦ .
(١٠) سورة ابراهيم ٢،٣ .
(١١) سورة الروم ٧
(١٢) سورة النجم ٢٠،٣٠ .
(١٣) سورة الانسان ٢٧ .
(١٤) سورة النازعات ٣٧،٣٨،٣٩ .
(١٥) سورة البقرة ٢٠٠،٢٠١ .

ويقول على لسان نبي الله موسى : « واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة انا هدنا اليك » (١٦) ، ويمدح خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فيقول : « وآتيناه في الدنيا حسنة وانه في الآخرة لمن الصالحين » (١٧) .

بين الاديان السماوية والفلسفات المادية :

وهنا تتعارض الاديان السماوية ، وتعاليم النبوءة أو مدرسة النبوءة ـ ان صح هذا التعبير ـ مع الفلسفات المادية والتفكير المادي ، الذي يلح على أن هذه هي كل شيء ، وهي المنتهى ، ويبالغ في تمجيدها وتقديسها ، والاحتفاء بها ، والحرص على ترفيهها وتحسينها وتزيينها .

وقد تجلت هذه النفسية القرآنية ، أو النظرة القرآنية الى الحياة في كلام النبي ﷺ ، وكثيرا ما كان يقول : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة»(١٨) ، وكان دعاؤه ﷺ : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا ـ وفي رواية : كفافا ـ»(١٩) .

وعن المستورد بن شداد : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله ما الدنيا في الآخرة الا مثل ما يجعل احدكم اصبعه في اليم فلينظر بم يرجع »(٢٠) وقد كانت حياته الطيبة مرآة صادقة لهذه العقيدة والنفسية ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه : ان رسول الله ﷺ نام على حصير وقد اثر في جسده ، فقال ابن مسعود يا رسول الله لو أمرتنا ان نبسط لك ونعمل ، فقال : « مالي وللدنيا ، وما انا والدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها »(٢١) ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الايلاء : « فدخلت على رسول الله ﷺ فاذا هو مضطجع على رمال (٢٢) حصير ليس بينه وبينه فراش قد اثر الرمال بجنبه متكئا على وسادة من أدم حشوها ليف فسلمت عليه .. (الى ان قال) فرفعت بصري في بيته فوالله ما رايت فيه شيئا يرد البصر غير أهب ثلاثة(٢٣) فقلت يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك ، فان فارسا والروم

(١٦) سورة الأعراف ١٥٦ .
(١٧) سورة النحل ١٢٢ .
(١٨) رواه البخاري في كتاب الرقاق .
(١٩) رواه مسلم في كتاب الزهد .
(٢٠) رواه مسلم .
(٢١) رواه احمد ، والترمذي ، وابن ماجة .
(٢٢) المراد به النسج .
(٢٣) جمع اهاب وهو الجلد .

قد وسع لهم واعطوا الدنيا ، وهم لا يعبدون الله ، فجلس النبي ﷺ وكان متكئا ، فقال : أو في هذا انت يا ابن الخطاب ان اولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا »(٢٤) .

تلاميذ مدرسة النبوة وسيرتهم :

وقد انصبغ كل من تلقى التربية في هذه المدرسة او تخرج منها ، او كان تلميذا من تلاميذها بهذه الصبغة ، وسيطرت عليه فكرة الآخرة ، وجرت منه مجرى الروح والدم ، وتغلغلت في أحشائه ، فأصبح لا يذهل عن الآخرة ولا يبغي بها بدلا ، ولا يؤثر عليها شيئا ، فيكفيك اذا اردت ان تتمثل هذه الروح المسيطرة على تلاميذ هذه المدرسة ان تقرأ صفة علي بن ابي طالب رضي الله عنه وهي صورة ناطقة لطراز الانسان الذي تخرج من هذه المدرسة ، ونشأ في أحضان الرسول ﷺ .

عن ابي صالح قال : قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة : صف لي عليا فقال : أو تعفيني ؟ قال : بل صفه ، قال : أو تعفيني ؟ قال : لاعفيك قال : أما اذا فانه والله كان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وينطق بالحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ويعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ، ويبتدئنا اذا اتيناه ، ويأتينا اذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ، ولا نبتديه لعظمه ، فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله واشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السقيم ، ويبكي بكاء الحزين ، وكأني اسمعه وهو يقول : يا دنيا أبي تعرضت ، أم لي تشوقت ؟ هيهات هيهات ! غري غيري ، قد بتتك ثلاثا لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير آه من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة الطريق »(٢٥) .

واليك مثالا ثانيا ، وهو خطبة رجل من أصحاب النبي ﷺ يلقيها اميرا في عاصمة كبيرة من عواصم الدولة الاسلامية الكبرى :

(٢٤) البخاري ج ٢ كتاب النكاح .
(٢٥) صفوة الصفوة لابن الجوزي .

« عن خالد عمر العدوي ، قال : خطبنا عتبة غزوان — وكان أميرا على البصرة — فحمد الله واثنى عليه » ثم قال : أما بعد فان الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء (٢٦) ولم يبق منها الا صبابة(٢٧) كصبابة الاناء يتصابها صاحبها وانكم منتقلون منها الى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ، فانه قد ذكرنا ان الحجر يلقى من شفة جهنم فيهوي فيها سبعين عاما لا يدرك لها قعرا ، والله لتملأن ، أفعجبتم ؟ ولقد ذكرنا ان ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة اربعين سنة ، وليأتين عليها يوم ، وهو كظيظ من الزحام ، ولقد رايتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ مالنا طعام الا ورق الشجر ، حتى قرحت اشداقنا ، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعيد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعيد بنصفها ، فما اصبح اليوم منا احد الا اصبح أميرا على مصر من الامصار ، واني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيما وعند الله صغيرا ، وانها لم تكن نبوءة قط الا تناسخت ، حتى تكون آخر عاقبتها ملكا فستخبرون وتجربون الامراء بعدنا » (٢٨) .

تخرج العقليات وبعض الدعوات من عقيدة الآخرة :

ولا تستطيع العقليات والدعوات التي لم تتشبع بروح الايمان ، ولم تتلق التوجيه والتربية من مدرسة الرسول ﷺ مباشرة ان تهضم هذه الفكرة والعقيدة ، او الاتجاه ولا تسيغه ، ولا تزال في صراع منها او في حرج من ذلك ، وتحاول الفرار منه او تعلله بانه كان في عصر خاص ، وبيئة خاصة وبظروف واسباب ، ولكن الذي لا غموض فيه ان القرآن وسيرة الرسول ، والحديث النبوي ممتلىء بهذه الروح وان هذا هو المزاج الاسلامي ، او النفسية الاسلامية ، التي تتكون تحت تأثير التربية الاسلامية النبوية ، وكلما استطاع القرآن ، وكلما استطاعت السيرة النبوية ، ان تعمل عملها بحرية وتنشىء جيلا خاصا يخلق في الاسلام خلقا جديدا ولم تساوره العوامل الاجنبية ، كان ذلك مزاجه او طبيعته او نفسيته : زهد في هذه الدنيا وزخارفها ، وقناعة بالقدر الكافي ، واهتمام بالآخرة وما ينفع فيها ، وحنين الى لقاء الرب ، وايثار ما عند الله على ما في هذه الحياة واستقبال للموت على الايمان وفي سبيل الله ، وقد نفيض على شفة هذا الطراز المؤمن كلمة السابقين من أصحاب الرسول ﷺ : « غدا الاقي الاحبة ، محمدا وحزبه » (٢٩) .

(٢٦) اي سرعة الانقضاء .
(٢٧) البقية اليسيرة من الشراب ، تبقى في اسفل الاناء .
(٢٨) مسلم ج ٢ « كتاب الزهد » .
(٢٩) من قول سيدنا بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنه : الغزالي في الاحياء عن ابن ابي الدنيا .